-٩-

الأمير مصطفى الشهابي
عالم وإديب

على سفوح « قاسيون » جبل دمشق الاشم، حيث يرف النسيم ويشرف على الغوطة الخضراء، قام بيت منيف كنا نأتيه حينا بعد حين فنجده محرابا للفكر والمعرفة، وما من عالم يزور دمشق الاكان عنده احد المعالم المنشودة التى ينبغى ان لا يفوته الالمام بها.

لم يكن ذلك البيت صومعة راهب متعبد او برجا من عاج اعتزل صاحبه الناس وعكف على التأمل والتزهد، وانما كان دارة علم وادب مجتلى للطبيعة والحياة يشع نورا على دمشق كما تشع الشمس التى تملأ « قاسيون » وتنحدر الى ضفاف بردى حتى تعم الغوطة ومغانيها.

فى هذه الدارة الضاحية اقام الامير مصطفى الشهابي عاكفا فى بحث وتأليف او على نقد وتحقيق، فما زرناه كدأبنا الاراينا بين يديه أوراقا يحبرها او كتبا يطالعها، او محاضرة يعدها لندوة ثقافية او مجلة علمية كبرى.

ولئن عرف هذا الامير بالشمم واصالة النسب الذى يصله بجدوده الشهابيين القرشيين امراء لبنان وحكام بقاع فى الشام، فان تواضع العالم الخبير ولباقة الدبلوماسى المطبوع يتجليان فى حديثه ومجلسه، ولا يستطيع عارفه او زائره الاان يؤخذ بثقافته المتعددة الجوانب، وحكمته فيما يعالج من قضايا وطنية واجتماعية، وقد يخيل الى من يلقاه على سمته واريحيته انه من الموسرين، والواقع انه يزدرى المال ويؤثر الكرامة والخير العام، ويعجب لمن يضيع العمر والذمام فى سبيل الثراء.

لقد جمع الامير مصطفى بين الثقافتين العربية والغربية جمع احاطة وتمكن، وحمل من فرنسة شهاداتها الجامعية فى الهندسة الزراعية التى احبها منذ صباه، وفى استنبول حيث تلقى ثقافتها التركية كانت تهتاجه الوطنية التى تنسمها فى نشأته وحماه، وخفقت معانيها فى حسه ومراده، فيا وقفات للفتى الامير على ضفاف البوسفور كان يتنور فيها اخبار مصر والشام ويهتز لشعر قاله حافظ وشوقى فى ذكر الكنانة ودارات امية، فيزداد حماسة وحنينا الى موعد التحرر والخلاص من نير الاستبداد والاستعمار.

ولم يكن ذلك بدعاً فى وطنيته الاصلية، فقد ثار اخوه الامير عارف الشهابي على الحكم التركى الغاشم مع الشهداء الاوائل الذين طوى جسومهم ظلم جمال السفاح، لكن ارواحهم بقيت حوامة على الحمى مدومة فى آفاق العرب، تبعث الحمية والحرية فى الجيل بعد الجيل، وما كاد الامير مصطفى الشهابي ينهض

بالمناصب الكبرى حتى اثمر علمه وازدهر أدبه، ولمس القوم آثاره فى الانشاء والاصلاح، ومن ثم اخذ ينشر المؤلفات الزراعية التى تمرس بعلمها، وكان استقصاؤه لكل جديد او قديم فيه موضع العجب والاعجاب لدى متتبعى تآليفه التى امتازت بمناهجها وصحة مصطلحاتها وسداد حجتها وغايتها، حتى شهد له اساطين هذا العلم بالمعرفة الشاملة فيه، وعدوه اكبر عالم زراعى فى الشرق العربى، وكان لزاما عليه فى نقل علوم الزراعة الحديثة الى العربية ان يتحرى اصلح الالفاظ فى معالجتها وفى كتب النبات والحيوان والزراعة القديمة، اما النبتات التى كان العرب يجهلونها فقد ابتكر لها الامير اسماء عربية وذلك بالرجوع الى اصول الاسماء العلمية الدالة على هذه النباتات وترجمة تلك الاسماء بمعانيها الاصلية او تعريبها اذا كانت تدل على اعلام، وبذلك اغنى الفصحى بمئات من الالفاظ التى ابتكرها، ونشر كثيرا منها فى « المقتطف » ومجلة « المجمع العلمى » بدمشق، ثم ضمها إلى معجمه العظيم الذى كان حدثا جديدا فى دنيا هذا العلم الذى ينبغى للبلاد العربية ان توليه عنايتها الاولى، لان الارض التى كان اندريه جيد يقدس فيها اغذيتها ويستنبط منها ينابيع العبقرية الانسانية هى التى تحنو على الانسان حنو المرضعة على الفطيم، وبقدر ما يؤدى اليها من حفاوة ورعاية يتلقى المرء منها وفاء وخيرا، فاذا كان العلامة الشهابي قد سلخ الشباب والكهولة فى سبيل هذه الارض، يدرس ويبحث من اجلها، ويجهد ويحقق فى سبيلها، فانما كان طبيبا وحبيبا الى الارض التى هى امنا الاولى، واليه ترجع فكرة العناية بالفلاح الذى ارتبط بالارض كادحا

ومنحها عمره وكده، فقد سعى الى بيعه من املاك الدولة حين كان مديرا عاما لها، على ان يؤدى الثمن نجوما ودفعات، وبذلك تتكون الملكية الزراعية الصغيرة.

وقد ترك الامير مصطفى الشهابي فى اكثر المناصب التى تقلدها آثاراً لا يمحوها الزمان، منها انشاء دار الكتب فى اللاذقية ورعاية دار الكتب فى حلب اذ كان واليا ومحافظا مرتين فى كل من المدينتين، ولا يزال يرفدهما باهتمامه، وقد أولى العربية عنايته فى الديوان ومرافق الناس، فاتخذ قرارا بان تكون عناوين المتاجر والمصانع بالعربية الصحيحة، واذا شاء احد ذويها ان يكون الاعلان او العنوان بلغة أجنبية اقتضى ان يكون هذا تحت العربية أو على شمالها وبحروف اصغر من حروف اللغة الرسمية، وشاعت هذه الامنية الشهابية وتحققت فى المحافظات السورية الى جنب الافلام السنمائية الاجنبية التى كانت تقتصر على لغتها فى العرض والاداء، وذلك منذ بضعة عشر عاما.

وراجت السياسة فى سورية رواجاً عجيبا، فلم يبتغ الامير اليها سبيلا ولا ارتقب السوانح المواتية، لانه كان وطنيا نزيها، ولم يكن وصوليا او انتهازيا، على شاكلة كثير ممن احترفوا السياسة واصطنعوها للمال والظهور، وقدتأبى على الوزارة حتى اعترف الفرنسيون بالغاء الانتداب وحق السوريين فى الاستقلال، على ان هذه الوطنية فى الامير الشهابي ليست مرتجلة او عابرة، فقد نجمت فى اصوله وشب عليها، وقد ثار اخوه على الطغيان والعدوان حتى

راح شهيدا، اما الامير مصطفى فقد عمل سرا وعلانية على تحقيق الحرية والجلاء، لكنه يؤثر العمل الصامت والرأى قبل الشجاعة فى ممارسة شؤون الدولة، لا سيما فى الملمات والصدمات، وكأنه ربان حاذق بتفادى الاعاصير حتى يصفو الجو ويهدأ الموج، وعندئذ يصل بالامانة الوطنية الى شاطئ السلامة. ومهما دارت الضجة وتقول المتقولون فلا يعبأ هذا الربان الابالدفة التى احكم قيادتها، وليست وجهته الا مصلحة الشعب ومجد الوطن، وقد ازدادت على الثقة والمرانة تجارب الامير ومعرفته بقضايا الشرق والغرب وما يجول فى آفاق الدول والساسة من مداورات ووجهات، وقيضت له درايته ان يدرس تاريخ الاستعمار واساليب المستعمرين ويبحث الوعى العربى واليقظة الحديثة فى التحرير والاستقلال، فألف كتابا قيما فى هذا الموضوع كان من اوثق المصادر والمظان للمشكلة العربية وعلاقة الشرق بالغرب.

لقد بدت فى بعض افذاذ المعاصرين بمصر والشام ظاهرة فى شمول الفكر والمعرفة وتعدد المواهب والمزايا تردنا الى سيرة فئة قليلة من علمائنا الاقدمين كابن سينا وابن خلدون والجاحظ والدينورى وامثالهم ممن كانوا موسوعيين فى ثقافتهم، وقد أتاهم الله عبقرية اتسعت لالوان من العلم والادب، وكان الامير مصطفى الشهابي من هؤلاء المعاصرين الذين تعددت فيهم الميزات وواتاهم الفكر والمزاج، الى مراسهم ثقافة اختصوا بها، فهو الى علمه الاولى لغوى محقق واقف على اسرار الضاد، ونحات لفظى مبتكر لالوف من

الكلمات الزراعية والحيوانية، لا يفتر عن البحث ولانمحيص والنقد في مجلة المجمع العلمي بدمشق، كما ان له تتبعا مرموقا في مجمع فؤاد الاول، اذا انه عضو مراسل فيه كما هو عضو عامل في المجمع بسورية.

اما ادب الامير فضرب من الترسل والجزالة، يتسم بطابع الدقة والتعمق، ويشف عن موهبة اصيلة، وقد اودع موضوعاته المتنوعة صدى خواطره وفلسفته في النفس والمجتمع. والامير الشهابي مجدد في اسلوبه وتنسيقه، متتبع للحصاد الفكرى والادبى في الشرق والغرب، ولم يخل ادبه من الشعر الذى قاله على سجيته وطبعه، لكنه على روعته ورونقه مقل فيه، ولو جمعت آثاره التى نشر أكثرها في صحف مصر والشام وحالت مشاغله دون اعدادها للمطبعة لجاءة في عدة كتب.

ان عهد الأمير مصطفى بالدبلوماسية يرجع إلى تمرسه بالمناصب العليا، ثم بالوزارة، وقد كانت لباقته وحكمته ملموستين في كل مهمة قام بها، حتى عهدت اليه الجمهورية السورية بان يكون وزيرها المفوض بمصر التى احبها واحبته وعرفها وعرفته منذ ربع قرن عالما ثبتا واديبا موهوبا يحاضر في ارقى ندواتها، وينشر في كبريات صحفها، داعيا الى خير العروبة ولغتها، وحين جاء مصر وزيرا لبلاده استبشرت الكنانة بالوجه الذى عرفته من قبل سفيراً فكريا قبل ان يأتيها سفيرا دبلوماسيا، وهو اليوم في هذا التمثيل خير

من يوثق، الروابط القديمة والحديثة بين مصر وسورية، اذا ان العلماء والمفكرين اذا جمعوا الحكمة والكياسة فى الحكم والسياسة كانوا اهدى سبيلا وادنى الى تحقيق الخير والوئام، ولو احصينا سيرة المصلحين فى تاريخ الامم لوجدنا اكثرهم كانوا من ذوى الفكر والرأى، وما ضل الناس الاحين ولى امورهم من لم يتقوا الله ولم يقيموا للحقيقة والمعرفة وزنا. فاذا تحدثت الى قراء « الثقافة » بهذا الفصل عن الامير مصطفى الشهابي مستفتحة بذكره فيما اعددت من فصول عن طائفة من اعلام العلم والفكر والاصلاح بمصر والبلاد العربية، فانما اصور مطلع كوكب سورى اخذ اليوم يتلألأ فى سماء الكنانة بين كواكبها التى يمتلىء بها نهر المجرة منعكسة اضواؤه على وجه النيل.

* * *